الفصل الأول

كيف يفسر القرآن؟

١- كيف يفسر القرآن؟
٢- النص والواقع.
٣- الوحى والواقع.
٤- التنزيل.
٥- القرآن.
٦- الواقع.
٧- التمنى.

١- كيف يفسر القرآن؟

ليس اليسار الإسلامى فقط اتجاها فكريا إسلاميا اجتماعيا سياسيا تقدميا يجمع بين الماضى والحاضر بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والتجديد مثل كل الحركات الإصلاحية. بل هو أيضا نظرية أو منهج فى التفسير يجمع بين النص والمصلحة، بين مقاصد الشريعة المستقراة من الأصول وتفعيلها فى الواقع المعاش فى الزمان والمكان. وقد كان تقدم العلم باستمرار باكتشاف المناهج أكثر من معرفة الموضوعات. الموضوع نفسه منهج، وليس فقط بنية. والحياة نفسها منهج وليست فقط تجربة معاشة. والعالم كله منهج وليس فقط نسقا أو نظرية.

وهو ليس منهجا جديدا بل يضم معظم مناهج التفسير السابقة ويعيد استخدامها كأجزاء من منهج كلى أشمل. فهو يضم المنهج التاريخى الذى يعتبر النص مصدرا للمعلومات التاريخية يستقيها من خارجه. ومعظمها من الإسرائيليات وتاريخ الأديان السابقة فى شبه الجزيرة العربية. لذلك ارتبط بعلم التاريخ، وكان المفسرون الأوائل مؤرخين مثل الطبرى وابن كثير. لا يستعمل التاريخ إلا بقدر معرفة أسباب النزول وسياق الآيات، والناسخ والمنسوخ وتطور الأحكام الشرعية فى الزمان وطبقا لتغير الظروف والأحوال لِقَدَم النص على الواقع، والحكم الشرعى على الطاقة.

ويضم المنهج اللغوى ليس من حيث الإعراب كالزجاج. فليست اللغة غاية فى ذاتها. وليس القرآن كتابا للإعراب لاختبار قواعد النحو ورصد الاستثناءات بل

تستعمل اللغة من خلال تحليل المضمون لمعرفة دلالتها على المعانى وكما هو الحال فى فلسفة اللغة، دلالة الأسماء والأفعال والحروف والضمائر والإضافة، والفاعل والمفعول بأنواعه المختلفة، والمعرفة والنكرة، والشرط والمشروط، وأقسام الكلام، الخبر والإنشاء والمنادى والاستفهام.

ويحتوى على المنهج الفقهى ليس لتجميع الأحكام الشرعية كما هو الحال فى علم الفقه حول محاور رئيسية، العبادات والمعاملات، بل لمعرفة مقاصد الأحكام وغاياتها، والحكمة منها والباعث عليها باعتبارها معايير للسلوك بعيدا عن الطابع التشريعى الصورى للفقه، الأوامر والنواهى، وكأن الإنسان مجرد آلة للتنفيذ بصرف النظر عن مشاعره ورغباته وميوله وبواعثه وحريته فى الاختيار.

ويتضمن أيضا التفسير الكلامى العقائدى الذى يعرض لأصول العقيدة أو قواعد العقائد، وجود الله وخلق العالم وخلود النفس، كما تفعل التفسيرات الكلامية مثل الزمخشرى والدخول فى عقائد الفرق، دفاعا عن فرقة أو نقداً لفرقة أخرى، معتزلة أو أشعرية، سنية أو شيعية أو خارجية. فالعقائد ليست أشياء بل هى بواعث على السلوك. وليست موضوعا للجدل العقلى حول تصورات تقوم على التنزيه أو التشبيه وأحيانا التجسيم بل هى تحليل لأعماق النفس البشرية لمعرفة بواعث السلوك. فالعقائد تمثل تصورات عامة للحياة، للإنسان والمجتمع، للفرد والجماعة كما تفعل الأيديولوجيات الحديثة. تُستنبط منها نظم سياسية واجتماعية واقتصادية. وهى معنى العبارة الشهيرة "الإسلام عقيدة وشريعة".

كما يحتوى على التفسيرات الفلسفية مثل الرازى دون الإيغال فيها حتى لا يبعد النظر عن العمل. وقد تغيرت الفلسفة من الفلسفة اليونانية القديمة التى تمت فيها التفسيرات الفلسفية الأولى إلى الفلسفة الحديثة التى مازالت خارج التفسير باستثناء بعض النظرات هنا أو هناك فى بعض التفسيرات الحديثة كمعلومات أو

اكتشافات جديدة خاصة فى العلوم الطبيعية. ومن هنا خرجت معظم التفسيرات العلمية للقرآن. يكفى أن يكون الإنسان فى المجتمع وفى العالم وفى التاريخ.

كما يتضمن التفسيرات الصوفية التى تقوم على التمييز بين الظاهر والبواطن، بين الشريعة والحقيقة والطريقة، بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب دون إيغال فى الباطنية بل بالعودة إلى العالم من جديد. فقد كان التصوف حركة مقاومة سلبية ضد مظاهر البذخ والترف والتكالب على الدنيا والصراع حول السلطة السياسية واستشهاد أئمة آل البيت ضد الأموية للعودة إلى الشرعية وأصول البيعة القائمة على العقد والشورى والاختيار.

تفسير اليسار الإسلامى هو استئناف للتفسيرات المعاصرة السياسية مثل "ترجمان القرآن" للمودودى، والاجتماعية مثل "تفسير المنار" للإمامين محمد عبده ورشيد رضا، والأدبية مثل "فى ظلال القرآن" للشهيد سيد قطب. وهو ليس تفسيرا طائفيا لنصرة فرقة على فرقة فى العقيدة أو فى السياسة بل هو تفسير يجمع شتات الأمة دفاعا عن وحدة عقيدتها واطراد مصالحها العامة.

ويقوم منهج التفسير الجديد على أربعة قواعد أسوة بقواعد المنهج عند ديكارت أو بيكون:

١- البداية بالشعور أو بالوجدان أو اللحظة أو الوقت بتعبير الصوفية أو العصر بتعبير الإصلاحيين. وهى لحظة الانفعال الحالية، ما يشعر به الناس سواء على مستوى الشعور أو اللاشعور. والشعور أخص من الإنسان. هى إحساسات الإنسان ومشاعره التى يصورها الأديب ويعبر عنها المفكر والفنان. "استفت قلبك وإن أفتوك".

٢- رصد حاجات الناس ومصالح الأمة كواقع إحصائى. من يملك ماذا؟ ومن يستهلك ماذا؟ ومن يسيطر على ماذا؟ ومن يقهر من؟ فلماذا يبعد الدين عن الحياة ولا يلبى القرآن المطالب الرئيسية للعصر؟ إن الحرمان الذى يعيشه الناس من عدم إشباع الحاجات الأساسية، الخبز الصحى، والماء النقى، والإسكان الكريم، واللباس العفيف، والصرف الصحى، والعلاج المجانى، والتعليم القويم هى مادة التفسير الأولى. فالواقع قلب النص وبؤرته الأولى. الواقع مادة والنص صورة. مهمة المفسر وضع المادة فى الصورة لتشكيلها وتحقيقها.

٣- إذا كان الشعور القاعدة الأولى، والواقع الإحصائى الذى يكشف عن حاجات الناس هو الموضوع، القاعدة الثانية فإن علاقة الذات بالموضوع والتفاعل بين الشعور والواقع هى القاعدة الثالثة. ويعنى ذلك تحويل هذا التفاعل إلى مشروع أو رؤية أو برنامج عمل. وتتكون عناصر هذا البرنامج طبقا لما سُمى فقه الأولويات: الأرض نظرا للاحتلال، احتلال الأرض، والتنمية، الصحراء القاحلة، والأمة دفاعا عن وحدتها ضد التجزئة والطائفية والعرقية والقبلية والعشائرية، والفقر ضد التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وضرورة إعادة توزيع الدخل، ووضع سياسة جديدة للأجور طبقا لقيمة العمل وحده، والقهر وثقافة السلطان والفراعنة الجدد دفاعا عن قول الحق فى مواجهة السلطان الجائر، والشورى والديموقراطية ضد نظم الحكم التسلطية، والتقدم ضد التخلف، والإصلاح ضد الإفساد، والمبادرة الحرة والخيال السياسى ضد السكون والعجز والتبعية والملل السياسى.

٤- التجربة المشتركة مع القارئ وإشراكه فى التفسير إلى أى حد يعبر عن حاجاته ويلبى مطالبه، ويحقق أمنياته، ويقضى على حرمانه، وينهى سلبيته، ويشركه فى إعادة بناء ثقافته الوطنية، وإعادة تفسير كتابه. إلى أى حد يعبر التفسير الجديد عما يجيش فى صدره، وما يخاف من الكشف عنه للقضاء على

ازدواجية الخطاب والشخصية والفصام بين القول والعمل دفاعا عن الصدق فى القول والإخلاص فى العمل؟ فإذا وعى القراء فإنهم يتحولون إلى وعى جمعى وكتلة تاريخية تساهم فى عملية التغير الاجتماعى، وتشارك فى صنع التقدم التاريخى. وبالتالى تتحرك الأمة، وتعود إلى مسارها فى التاريخ لتنهض فى دورة حضارية ثانية، تنهى بها عصرها الوسيط، وتبدأ بها عصورها الحديثة.

٢ـ النص والواقع

اليسار الإسلامى رؤية منهجية للفكر الدينى وعلاقته بالواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى والثقافى للعصر. فهو تحقيق منهجى ومنطق فكرى لدعوات الإصلاح السابقة ورفع شعار الجمع بين التراث والتجديد، القديم والجديد، الأصالة والمعاصرة، الماضى والحاضر.

وقد تعود الناس على خطابين. الأول خطاب دينى يعتمد على النصوص وتفسيرها خارج الزمان والمكان، خاصة ولو كانت نصوصا عقائدية شعائرية خالصة أو نصوصا تتعلق بأمور الآخرة. وظيفته الترويح عن النفس، وتبخير الأزمات، والتعويض الروحى، والانتقال من هذا العالم البائس الشقى إلى عالم آخر، عالم السعادة والنعيم. وهو الخطاب السائد فى معظم خطب الجمعة والبرامج الدينية فى قنوات الفضاء. والثانى خطاب اجتماعى علمى. يحلل الواقع الاجتماعى الإحصائى بدعوى الالتزام بالموضوعية وإعطاء الحقائق على الأرض كما هى دون تأويل ذاتى أو توجيه أيديولوجى. وهو ما يستحيل أيضا فى العلوم الاجتماعية. فكل تحليل كمى له قراءة كيفية. وكل واقع له رؤية. فالواقع متغير ومتحرك ومتطور. ينتقل من مرحلة إلى مرحلة. فالعلم الاجتماعى يرصد مسار التغير الاجتماعى إلى الوراء لا إلى الأمام. وهو ما يسمى بمعارك التخلف والتقدم. الخطاب الأول نص دون واقع. والخطاب الثانى واقع دون نص.

وإذا كان رجل الدين مستنيرا فإنه ينتقل من النص إلى الواقع. ومن كلام الله إلى أوضاع البشر حتى يكون خطابه أكثر دلالة وأوقع عند الناس. يجدون للنص

صدى فى حياتهم اليومية. وقد يغالى البعض فى ذلك فيتحول الخطاب الدينى إلى نقد اجتماعى خالص للسلطة والعادات الاجتماعية خاصة الجنسية منها فى علاقة الرجل بالمرأة، والذكر بالأنثى، والشاب بالشابة، والفتى بالفتاة. فمازالت هناك دوائر ثلاث فى الثقافة الموروثة يحظر الاقتراب منها: الدين، والسياسة، والجنس. ولو كان علم الاجتماع مستنيرا، ويعلم أن الظاهرة الاجتماعية فى صحيحها تراكم ثقافى، ومتصل تاريخى فإنه يحيل إلى الثقافة الشعبية ويكتشف أن مكونها الرئيسى النص الدينى والمثل الشعبى فيحيل إليه من باب تعليل الظواهر الاجتماعية والكشف عن مكوناتها ووضع أساليب تغييرها.

وهناك منهج ثالث يلتقى فيه الخطابان الدينى والاجتماعى وهو منهج تحليل الخبرات اليومية ومعاناة الناس حتى ينزل الخطاب الدينى على واقع حى، ويأخذ الخطاب الاجتماعى الإحصائى دلالات حية من تجارب الناس. فالأرقام صياغات كمية لحالات نفسية. والواقع الإحصائى لا يتكلم بنفسه. وهو مجرد ترجمة لمعاناة الناس. فالبشر هم الأساس. هم حلقة الوصل بين الدين والمجتمع، بين النص والواقع، بين الخطاب الدينى والخطاب الاجتماعى.

يستعمل اليسار الإسلامى هذه المناهج الثلاثة فى آن واحد لتوحيد الخطاب الثقافى ولتجاوز الاستقطاب الحالى بين السلفيين والعلمانيين. وهو أساسا استقطاب فى الخطاب وفى مناهج التفكير. فهو يبدأ من النص مثل رجل الدين. ويختار الموضوعات الأكثر إلحاحا طبقا لفقه الأولويات ولعموم البلوى. ولا يبدأ بموضوعات كسبت من قبل مثل العقائد والشعائر أو بموضوعات تخرج عن شهادة الحس والعقل والوجدان ويصعب الوصول فيها إلى يقين. صنفها القدماء على أنها من السمعيات التى لا تعتمد إلا على الرواية مثل أمور الآخرة. ويبدأ بتحليل ألفاظ الأرض والعدل والظلم والصلاح والفساد، والتقدم والتأخر، والإعمار والاستقلال، وهو

ما تحتاجه الأمة اليوم، عربية أو إسلامية. ويبدأ أيضا من الواقع مثل عالم الاجتماع. فالفقه أساسا هو فقه النوازل بلغة المغاربة أى فقه الواقع بلغة العصر. وما لم ينزل النص على نازلة يظل دائرا فى الهواء حائرا، لا زمان له ولا مكان. وعلى هذا النحو يصدق النص فى الواقع، والواقع يجد تأويلا له وقراءة فى النص. لذلك تلزمه الإحصائيات الدقيقة، من يملك ماذا؟ ومن يسيطر على من؟ ومن يحتكر ماذا؟ ومن يستغل من؟ ومن يسرق ثروة من؟ والإحصاء لغة العصر. والرقم هو النص الجديد. ويبدأ ثالثا بتحليل الخبرات الحية عند الناس. فاللغة المباشرة أشد تأثيرا فى الناس وأبلغ من تأويلات النصوص وإحصائيات الواقع. وقد برع بعض المشايخ والخطباء فى ذلك تملقا لأذواق الجماهير، ودغدغة لعواطفهم، وإثارة لأشجانهم وأحزانهم لدى مشايخ الفضاء بدعوى صنع الحياة، وعدم الحزن، ومشاكل الشباب والمجتمع. وتحول بعضهم، رجالا ونساء، إلى خبراء فى التحليل النفسى لمعالجة مشاكل الشباب وفى مقدمتها الزواج. وهى مادة الشعراء والأدباء والفنانين والسينمائيين التى التى لا يختلف عليها أحد، سلفيا كان أم علمانيا. ففى التجربة الحية يتوحد النص والواقع.

وعليها يتفق رجال الدين وعالم الاجتماع. وهى التجربة التى يلجا إليها أيضا الخطاب السياسى لتبخيرها وتخديرها والإيماء بالحل القريب لها، والدعوة إلى الصبر حتى يتم عبور عنق الزجاجة أو لأن التكاثر السكانى يلتهم كل معدلات التنمية "تناسلوا، تكاثروا، فإنى مباه بكم أمتى يوم القيامة"، بالإضافة إلى ارتفاع الأسعار العالمية. لذلك اشتهرت وذاعت التمثيليات التليفزيونية التى تعالج القضايا الاجتماعية مثل ذيوع مباريات كرة القدم.

اليسار الإسلامى وتعدد مناهجه هو الذى يوحد بين الخطابات المتصارعة ويقارب بينها. فالخطاب الدينى النصى لرجل الدين يكتمل فى الخطاب

الاجتماعى الإحصائى لعالم الاجتماع. وكلاهما يجد مصداقيته فى تحليلات الأدباء والفنانين والفلاسفة الذين يصورون الواقع من خلال معاناة الناس. وبالتالى تقل حدة الاستقطاب الحالى بين السلفيين والعلمانيين بتوجيه كل من الفريقين حول مصالح الناس ومعاناتهم اليومية. فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. وكما يتقدم الأدب والفن كذلك يتقدم الفكر والعلم بدلا من اغترابهما خارج الزمان والمكان.

وهذا ما فعله لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا ومازال الوطن العربى والعالم الإسلامى فيه متأخرا. واليسار الإسلامى أحد صياغاته العملية دون الدخول مؤقتا فى المسائل العقائدية التى مازالت عندنا من المقدسات التى لا يمكن إعادة تأويلها. وهو نوع من دراسات الثقافة الوطنية وعلاقتها بالتغير الاجتماعى. وهو ما يمكن أن يلتقى عليه خصماء الوطن والإخوة الأعداء. وهو أيضا صياغة منطق الإصلاح صياغة جديدة حتى يتحول من الإنشائيات والخطابات الفضفاضة إلى خطاب دقيق، يجمع بين تحليل الخطاب الدينى، وتحليل الواقع الاجتماعى، ووصف الخبرات الحية. فالإصلاح بعد كبوته الأولى فى حاجة إلى إصلاح ثان ينهض من جديد. يتعلم من تجربته الأولى ويضع أسسا منهجية لتجربته الثانية.

٣ـ الوحى والواقع

ليس الوحى مجرد كلام أو خطاب أو رسالة أو تبليغ بل هو تنزيل أى اتصال بين السماء والأرض، بين الله والعالم. الواقع هو مكان نزول الوحى كما هو معروف فى "أسباب النزول". وتُعاد صياغة الأحكام الشرعية طبقا لقدرات الواقع وعدم جواز تكليف ما لا يطاق كما هو الحال فى "الناسخ والمنسوخ". وقد كتب بعض الإصلاحيين من قبل عن "فقه الواقع".

ولفظ "الواقع" لفظ قرآنى. ذكر ومشتقاته أربعة وعشرين مرة بوضوح وقوة. منها إحدى عشرة مرة اسما، ولفظ "واقع" ست مرات. وواقعة مرتان. وذكرت مشتقاته وقعة، مواقع. وقد يكون الواقع شيئا حسيا مثل الجبل أو النار أو شيئا بين الحسى والمعنوى مثل السماء أو يوم القيامة فى المستقبل. والغالب هو الواقع المعنوى سلبا مثل العذاب والرجس والرجز والإثم أو إيجابا مثل الأجر والحق والقول والوعد والدين والكسب. والأكثر استعمالا هو وقوع الشيء من تلقاء نفسه مثل الحق والقول. فالحق فكر وواقع، نظر وعمل. الحق قول، والقول حق. والوحى حق نظرا، وواقع عملا. الحق واقع، والواقع حق وهى الواقعة أى يوم القيامة، واقعة لا تكذب. الواقع صدق. وهو محك التصديق. ليس الصدق تطابق النتائج مع المقدمات كما هو الحال فى المنطق الصورى بل هو وقوع الحق، مطابقة الفكر للواقع كما هو الحال فى المنطق التجريبى. لذلك ارتبط الواقع بالصدق، وعدم الوقوع بالكذب. كما أن جزاء العمل إيجابا أم سلبا واقع نظرا لارتباط نتيجة الفعل بالفعل ارتباطا سببيا.

إذا وقع الفعل وقعت النتيجة.

لفظ "الواقع" من أكثر الألفاظ قربا إلى الروح العربي الآن. تردد في الفكر العربي المعاصر، وأصبح شرطا لتقدمه في الفن والفكر والسياسة. وأصبح اللاواقعي نقدا. بل أصبح غياب الواقع في حياتنا الثقافية أحد الأسباب الرئيسية للتخلف. لا يعني الواقع ما هو شائع من ضرورة قبول الأمر الواقع بمعنى التسليم بكل ما يجري من هزيمة وفقر وقهر. فهذا إنكار للمقاومة. فالمقاومة والرفض والاعتراض أيضا واقع. المثال واقع أكثر من الواقع. وكما قال فشته، الفيلسوف الألماني، من قبل: "لو آمنت بمثل أعلى أنه موجود. ثم اتضح لي فيما بعد أنه غير موجود. فليس خطئي أنني آمنت به. بل خطؤه هو أنه غير موجود".

الدين واقع بنص القرآن، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾. فالدين ليس مجرد مواجيد للنفس ولا أحوال لها كما هو الحال في علم النفس الديني، مجرد تعبير عن رغبات وأمنيات وتمنيات لعالم أفضل، ظاهرة ذاتية خالصة. تتبخر بتغير أحوال النفس. الدين حلم لم يتحقق، وأمل صعب المنال. وقد يغالي البعض ويجعله من اختراع النفس وتجسيد للوهم، أسطورة من صنع البشر. الدين واقع، له وجود فعلي في حياة الأفراد والمجتمعات، وليس وهما أو أسطورة. يقوم على المسئولية الفردية وقانون الاستحقاق الذي سماه القدماء "الكسب" أي ما يحصل عليه الإنسان بنفسه، ﴿مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾. فالإنسان لا يستطيع أن يتخلى عن نتائج أفعاله. وهو واقع تحت المسئولية القانونية. الإنسان حر عاقل مسئول، في الدنيا والآخرة.

ولا شيء يستعصى على الوقوع حتى الجبال، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾. فالوقوع أشبه بقانون الجاذبية. كل شيء يتجه نحو الأرض، الماء والطير والريح والحرارة

والبرودة. إذن الخطاب الدينى الذى يقوم على الوعظ والإرشاد معتمدا على الانفعالات الإنسانية، والإحساس بالذنب وضرورة التوبة وطلب المغفرة مع البكاء والنحيب كما يفعل الدعاة الجدد خطاب لا واقع له. الواقع هو حياة الناس وما يدور فيها من فقر وجوع وعطش وعوز. لذلك كثيرا ما يتحدث القرآن عن الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والأسرى وهم بتعبير المعاصرين "المعذبون فى الأرض".

الواقع أيضا هو التوقع لنتائج الأعمال الإيجابية أو السلبية، الثواب والعقاب، الوعد أو الوعيد، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. والأهم هو توقع العذاب يوم القيامة نتيجة لسوء الأعمال، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، وليس مجرد تخويف أو ردع الغاية منه تربية النفس وإصلاحها. وهو ما يسأل عنه أصحاب السيئات، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.قد يتنازل الإنسان عن الثواب، ولكنه لا يستطيع أن يتفادى العقاب.

إذن تصور الدين واقعا ليس كفرا وإلحادا وإنكارا للوحى، ولا مادية، ولا ماركسية، ولا وضعية، ولا برجماتية، ولا نفعية بل هو صلب الدين. الدين بلا واقع سماء بلا أرض، ماء معلق فى الهواء، لا يروى ولا ينبت.

٤- التنزيـــل

مما يؤكد صلة الوحى بالواقع مفهوم "التنزيل". وهو أيضا لفظ قرآنى ورد أكثر من لفظ "الواقع" حوالى ثلاثمائة مرة. أكثرها اسم صلة "ما نزل" (سبعة وسبعين مرة) للدلالة على الشيء العام حسيا أو معنويا. بعد ذلك يأتى الكتاب (أربعا وأربعين مرة) أى الوحى ثم الماء (اثنين وثلاثين مرة) مما يدل على أن النزول من السماء من أعلى إلى أدنى إما فكرا وهو الوحى أو ماء لنبات الأرض. وكلاهما نبت. الأول فى الشعور، والثانى فى الأرض. كلاهما تخصيب ونماء. الأول فى الوعى، والثانى فى الطين. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ حتى تنبت الأرض دون فيضان أو جفاف. وهو ماء مبارك، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾. ومع الكتاب يُذكر الحق، والفرقان، والحديث، والذكر، والقرآن، والحكم، والآية، والسورة، والفضل، والأمر، والنور والسكينة، والتنزيل. وكلها تدل على النزول المعنوى. ويدخل فى ذلك التوراة والإنجيل. ومع الماء يذكر الغيث، والملائكة، والشياطين، والمائدة، والرزق، والمن، والسلوى، والجبال، والبرد، والجنود، والأنعام، والحديد، والرجس، والسلطان. والنزول يكون بالحق ومرتبط به (ثلاث مرات). وبالتالى ارتبطت الألفاظ الثلاثة: الوحى، والواقع، والنزول. وما ينزل له سلطان، أى له قوة التحقق والوقوع. وكل ما ينزل دون حق لا يكون له سلطان. لذلك ارتبط النزول بالسلطان (ثمان مرات). ونزول الحق للذكر والحفظ والبقاء. ويكون الحفظ والبقاء نصا مدونا بلا تحريف، وفكرا صائبا بلا تشبيه، وسلوكا خالصا بلا موارية. ويحدث ذلك كله فى الشعور وفى الذهن وفى الفكر والسلوك، فى الفرد والجماعة،

فى الحاضر وفى التاريخ والماضى والمستقبل. يحدث للتصديق والبيان والهدى والرحمة والشفاء والحكم حين الاختلاف والأمر والسكينة والفرح...الخ، تنزيل فى عالم الحياة.

ويتطلب التنزيل أربعة أشياء: مصدر التنزيل، كيفية التنزيل، موضوع التنزيل، مكان التنزيل. فمصدر التنزيل هو رب العالمين، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهو تنزيل ممن خلق السماوات والأرض، ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ﴾. أى أنه تصرف فى ملكه وتنظيم له. وهو الله العزيز الحكيم، ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. وهو الرحمن الرحيم، ﴿تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وهو الحكيم الحميد، ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وهو العزيز الرحيم، ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. فالتنزيل تعبير عن الصفات الإلهية، الربوبية والعزة، والرحمة والحكمة. التنزيل من طبيعة الكرم الإلهى. وهو فى نفس الوقت لصالح الإنسان. فهو نزول بالحق ومن الحق، ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾. والحق قوة وسلطان، ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

إما كيفية التنزيل فإنه تنزيل متدرج متتالى على التوالى، عدة مرات، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ طبقا للحاجة والمواقف التى تستدعى طلبا، والمشاكل التى تتطلب حلا. وهو ما سماه علماء القرآن "أسباب النزول". لم يتم التنزيل دفعة واحدة كما حدث فى الكتب المقدسة السابقة بل على مدى ثلاث وعشرين عاما فى مكة لتأسيس العقائد، وفى المدينة لوضع التشريعات. وقد نزلت التوراة من قبل، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾. نزل القرآن على مهل، خطوة خطوة حتى يتغير الواقع، ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾. وقد حملته الملائكة، ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾. ونزل الروح وهو جبريل، ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. وهو الروح الأمين، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾.

أما موضوع التنزيل فهو الكتاب الذى لا ريب فيه، **﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾**. وهو الوحى والرسالة والأمانة والحق والفرقان والقرآن.. والكتاب هو الأعم، **﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾**. وقد طلب أهل الكتاب كدليل على صدق الرسول أن ينزل عليه الكتاب، **﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا﴾**، يقرءونه كما نزلت عليهم الكتب السابقة، **﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾**. وقد تنزل سورة وهى جزء من الكتاب لبيان أن الوحى نزل مفرقا، **﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾** لتفضح موقف المنافقين. أو آية، أصغر من السورة، **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾**. ويسوؤهم أن ينزل بساحتهم فى الصباح، **﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾**. ويتمنون ألا ينزل شىء، **﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾**.

وهو الفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل، **﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾**. وهو أحسن الحديث كتابا. وهو الذكر الذى يدخل فى القلب فيذكره، **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾**. وهو القرآن، **﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾**، **﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ﴾**. وفى التنزيل تبيان كل شىء، **﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾**. ليس التنزيل إذن مجرد شىء نزل من السماء بل هو معرفة وحكمة وحق وهدى وتغيير فى المجتمع، وحركة فى العالم.

أما مكان التنزيل فهو الرسول، **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾**. فالرسول واسطة للتبليغ بين الحق والناس، **﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾**. وهو محمد الرسول، **﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾**. وهو عبد الله، **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾**. ولا ينزل إلا على قلب عربى لأنه بلسان عربى مبين، **﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾**. وقد نزل على قلب الرسول مباشرة فى وعيه وضميره، **﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾**، حتى ينبت ويستثمر ويخرج للناس فى الحديث هدى وتفصيلا. وكما تنزل الملائكة والروح على الرسول تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم. فالسؤال،

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾، والإجابة ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فالشياطين تنزل بالغواية، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾. وقد كان الصحابة عند سماع القرآن يشعرون كأنه نزل عليهم مباشرة وهو ما قاله الصوفية أيضا. وربما هو ما يشعر به كل مؤمن.

٥ـ القــرآن

فى هذا الشهر الكريم، شهر رمضان نزل القرآن. وبه ليلة القدر فى العشر الأواخر منه، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾. فهو الشهر المبارك. ويقرأ فى الفجر وحين السحر، فى ساعات الليل الأخيرة أو ساعات النهار الأولى، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. دون الإطالة أو الشقاء أو إجهاد النفس، ﴿طه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

وقد ورد لفظ "القرآن" حوالى سبعين مرة فى سبعة معانى متمايزة:

١- القرآن تنزيل من عند الله. نزل مفرقا، أجوبة على أسئلة، ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾. وكان الكفار يتمنون أن ينزل القرآن جملة واحدة حتى لا يؤثر فى الواقع، ولا يغير حياة الناس، ويظل كلاما يُسمع ويُنسى ولا يُعمل به، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾. نزل مفرقا حتى يثبت فى القلوب تدريجيا، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾. ولا داعى للعجلة، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أن يتحقق فى حياة الناس. وهذا هو معنى التنزيل، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾. وهو أيضا معنى الترتيل، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾. أى الشعور بالمعانى والحقائق وقياس مدى المسافة بينها وبين الواقع.

٢- وهو حق: نزل من الحق وبالحق من أجل الحق. ليس افتراء، ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾. بل هو وحى من عند الله، ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾. وهو من لدن حكيم، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾. وهو كتاب مبين،

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾. لا يؤمن به الكفار، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، ولا يستمعون إليه، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾. وهو محفوظ من الضياع والتحريف، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. وهو قرآن مجيد، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾. وهو قرآن كريم، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾. وهو قرآن عظيم، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾. وهو قرآن حكيم، ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

٣- ولا يستطيع أحد أن يقلده أو أن يأتي بمثله. وهو من دلائل الإعجاز ويتحدى القرآن البشر أن يأتوا بمثله، ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾، ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾. وقد جمع فحوى. فيه منافع الناس ومصالح البشر، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾. وخرجت فيه كل الأمثلة، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾. فالإعجاز هنا ليس بلاغيا فقط بل هو تحد فنى وتشريعى وعلمى.

٤- وهو مصدق لما نزل سابقا، ومتمم للتوراة والإنجيل. فهو وحى واحد نزل على فترات طبقا لدرجة تطور الوعى الإنسانى، ﴿حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾. فالأديان واحدة ومتنوعة. ويقص على بنى إسرائيل والنصارى تاريخ تعاملهم مع أنبيائهم تكذيبا وهو الأغلب أو تصديقا وهو الأقل، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

٥- وهو قرآن عربى بلسان عربى مبين، وليس أعجميا. نزل بلغة العرب من أجل فهمه بلغته الأصلية، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وهو بلسان قويم دون عوج، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. فصلت آياته. واستنبطت منه الأحكام طبقا لقواعد اللغة العربية، ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. القرآن المترجم للدراسة وليس للعبادة. ويستحيل ترجمة كل شىء. إذ

يفقد القرآن المترجم البلاغة العربية وأساليبها.

٦- والقرآن للطاعة والامتثال بل وللسجود، ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ﴾. هو قرآن للتدبر والفهم، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. لا يُهجر ولا يُنسى، ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾. هو قرآن للذكر والتلاوة، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾. وهو تذكير بيوم الميعاد، ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾. يستمع إليه الجن فيؤمن، ﴿اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَباً﴾. هو قرآن للاتباع بعد الاستماع، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾. ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

٧- والقرآن يهدى الناس إلى الصراط المستقيم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾: يبدأ بالإنذار، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾. ومن يهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾. ولو نزل هذا القرآن على جبل لتصدع من خشية الله، ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. فيه شفاء ورحمة للناس، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وتسيّر به الجبال، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾.

وهو مشتق من أول لفظ نزل "اقرأ". الله معلمه، ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾. تلك هى المعانى للقرآن فى هذا الشهر الكريم الذى نزل فيه. لا يتحول إلى وثن ورقى بالقطيفة والذهب يُعلق فى الأعناق أو يوضع داخل المركبات أو يتهادى بين الرؤساء، ويقبل ويحنط كالمومياء.

٦- الواقع

انقسم الفلاسفة إلى تيارين كبيرين: الواقعيون والمثاليون كما انقسمت الفلسفة إلى مذهبين كبيرين: الواقعية والمثالية. الأول يثبت وجود العالم بصرف النظر عن وجود لذات العارفة وإدراكها له. والثانى يثبت وجود الذات المدركة للعالم، وينكر وجود العالم خارج رؤية الذات له. وارتبطت المثالية بالدين لأن الله وخلق العالم وخلود النفس، وهى العقائد الثلاث الكبرى فى كل دين، موجودة سواء آمن بها الإنسان أم لا. كما ارتبطت الواقعية العالم وبالحياة الدنيا ضد التصورات والأفكار المسبقة التى قد تصل إلى حد الأوهام والخيالات والتعويضات النفسية. وقامت محاولات للتوسط بين المذهبين فى المثالية الجديدة أو الواقعية الجديدة ولكنها ظلت أقرب إلى المذهبين الرئيسين المتقابلين.

وقد ورد لفظ "الواقع" فى القرآن الكريم وليس لفظ "المثال"، اثنين وعشرين مرة. فهو لفظ رئيسى. ورد اسما وفعلا مناصفة أى أنه الواقع موجود مستقلا عن الذات، وهو أيضا من فعل الذات جمعا بين الواقعيين والمثاليين. وقد ورد بخمسة معان رئيسية:

الأول، وقوع الحدث. وهو فى الغالب فى الصيغة الفعلية. فالحق يقع على الباطل ويدمغه فإذا هو زاهق، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ومن يهاجر ويستشهد فإن أجره يقع على الله طبقا لقانون الاستحقاق، ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. والأكثر

استعمالا هو وقوع ما لا يتوقعه الإنسان نتيجة لأعماله السيئة مثل الرجس والغضب وما يقع من الله على الإنسان، **﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾**. وقد وقع الرجز على من لا يؤمن بوقوعه، **﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾**. ويقع الإثم على من يستحقه وقد كان يستعجله لأنه كان لا يؤمن به، **﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾**. ويقع القول ويتحقق في الواقع. فالقول هو المثال الذى يتحقق فى الواقع كما يقول الفلاسفة، **﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾**. ويقع القول ويتحقق الناس بما كانوا ينكرون، **﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ﴾**. ويريد الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ولكن ما يريده لا يتحقق بوعى الناس بالحق، **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾**. فالشر واقع أيضا مثل الخير. والأمر مرهون بإرادة الإنسان.

والمعنى الثانى أن الواقع فى الدنيا واقع أيضا فى الآخرة. فالآخرة واقعة لا يمكن إنكارها حتى ولو كانت متوقعة. فالواقع ليس فقط هو الذى وقع فى الماضى أو الحاضر، وهو أمر طبيعى بل ما قد يقع أيضا فى المستقبل بناء على امتداد الواقع عبر الزمان، **﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾**. فالواقع يحدث فى الزمان الممتد من الماضى إلى المستقبل، **﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾**.

والمعنى الثالث وقوع الوعد، ثوابا أو عقابا. وفى هذه الحالة تكون الواقعة خافضة رافعة، خافضة للأشرار ورافعة للأخيار، **﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾**. والأخيار مطمئنون للوقوع فى المستقبل لأنهم ينالون الأجزاء. والأشرار يفاجئون بوقوعه فى المستقبل ونيلهم العقاب. ويشفق الظالمون بما كسبوا وهو واقع بهم، **﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾**. والوعى صادق. والصدق يعنى الوقوع، **﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ . وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾**.

والمعنى الرابع، الوعد واقع، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾. والعذاب واقع، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. ومهما سأل السائل عن وقوعه فإنه واقع خارج السؤال والجواب أى موضوعى خارج الذات، ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾. والكذب ضد الصدق. ولما كان الصدق هو الوقوع فالكذب ضد الوقوع، ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾. والواقع مرئى، ولكنها رؤية صادقة، ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾.

والمعنى الخامس، الواقع أيضا هو الطبيعة والكون والعالم، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. والجبل واقع لا يمكن إنكاره، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾. والسماء مرفوعة والأرض منخفضة. فلا السماء تقع على الأرض، ولا الأرض ترتفع إلى السماء، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾.

والفعل "وقع" مُشابه صوتيا للفعل "فقع" أى وقوع الفعل مباشرة دون تأخير. فالملائكة تفقع ساجدين لآدم بعد نفخ الروح فيه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. وقد ذكرت الآية مرتين. فالوقوع ليس فقط للحدث بل أيضا للفعل الضرورى. فالعجب إذن أن يكون الفكر الإسلامى خياليا أسطوريا ميتافيزيقيا يدور حول ما لا واقع له ولا نفعَ فيه.

٧- التمنى

وفى مقابل الواقع، التمنى. الواقع حدث والتمنى هوى. الواقع صدق والتمنى كذب. الواقع حقيقة والتمنى بطلان. وقد عرفت الشخصية العربية بأنها تتمنى أكثر مما تحقق، وأنها تتحدث عما ينبغى أن يكون أكثر مما تحقق ما هو كائن. أمنياتها دليل على عجزها وضعفها وتحقيق ما تريد عن طريق الرغبات وليس الأفعال.

وقد ورد لفظ "التمنى" فى القرآن الكريم سبع عشرة مرة. فهو لفظ مهم وموضوع أساسى. وورد فى صيغة فعلية أكثر منه فى صيغة اسمية أى أن التمنى فعل للشعور وليس واقعا، ذاتى وليس موضوعا. وورد اللفظ بخمسة معانى.

الأول، وهو الأكثر استعمالا أن التمنى من فعل الشيطان وإلقائه وأنه يمنى الإنسان بنا لا يقع ولا يحدث بالهمس فى أذنه من أجل إضلاله وضلاله، **﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾**. والأمانى وعود مغرورة، **﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا﴾**. ولا يفرق الشيطان بين النبى وغير النبى. إذ يلقى فى روع كليهما الأمانى والغرور، **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾**. فالشيطان رمز الأمانى الواهية والرغبات والأهواء التى لا تقع، والأوهام والأساطير التى لا أساس لها.

والمعنى الثانى أن التمنى نفسه غير الواقع، وأنه جانب ذاتى فى الإنسان يعبر عن رغبة مستحيلة التحقيق فى مقابل الواقع الحاضر أو المستقبل، **﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا**

تمنّى . ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾. يتمنى الإنسان أن يكون له الأولى والآخرة حتى يفعل ما يشاء ويكون صاحب الأمر فى كل شىء فى الحياة وبعد الممات.

والمعنى الثالث أن الإنسان لا يتمنى الموت لأنه يريد أن يعيش أبد الدهر، ولا يريد حساب أو عقابا بعد الممات، ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. وأحيانا يتمنى الموت إن كان على يقين بأن الدار الآخرة له وأن مصيره الجنة ثوابا له على أعماله أو لأنه من أحباء الله وأصفيائه، ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وإن زعم أنه من أولياء الله فعليه أن يتمنى الموت، ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾. ولما عرفوا أنهم ليسوا كذلك خافوا من لقاء الموت والحساب والعقاب بعده، ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾.

والمعنى الرابع تمنى ما فى أيدى الناس، وما فضل الله بعضهم على بعض فى الرزق، ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾. فمال قارون لم يستمر، وثروته لم تدم. ويضرب به المثل الشعبى على هلاك الغنى والجد والاجتهاد الذاتى وليس بحسد ما فى أيدى الآخرين. هذا التمنى فتنة للنفس وغرورها، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾.

والمعنى الخامس تمنى أهل الكتاب وحسدهم وتمنيهم أن تستمر النبوة فيهم، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾. وقد تمنى أهل الكتاب ألا يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى مع أن الجنة مفتوحة لكل صاحب عمل خير بصرف النظر عن دينه، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

الحياة إذن ليست بالتمنى بل بالجهد والعمل والكسب والاجتهاد والاعتماد

على القدرة الذاتية. التمنى ذاتية بلا موضوعية، أهواء ورغبات مستحيلة التحقيق. والإسلام دين واقعى، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾. التمنى فضاء فسيح للتفريج عن النفس والتعبير عن الأحلام والتعويض عن الرغبات المكبوتة. ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى.

التمنى طلب النفس أقصى ما تريد لدرجة إنكار الواقع. وهو ما يستحيل تحقيقه. والواقع هو طلب النفس ما يمكن تحقيقه. التمنى تكليف ما لا يطاق. والواقع تكليف ما يطاق. التمنى هو ما سماه الفلاسفة المثاليون "المثال" ونقده الواقعيون بأنهم وهم من صنع الخيال. فلا تتحرر فلسطين بالتمنى ولكن بالفعل. ولا تتحقق مطالب الأمة فى التحرر والحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية والتنمية والهوية وحشد الأمة بالتمنى ولكن بالعمل على تحقيقها. لذلك كثر اتهامنا بأننا نعبر دائما عن فكر بالتمنى Wishful Thought. التمنى فى هذه الحالة أقرب إلى أحلام اليقظة والرؤى والمنامات والأحلام التى سرعان ما تبدد حين اليقظة.

التمنى هو أمل زائف لا يفيد العاجز والمحبط والضعيف والكسول. فمجموع الخطأين لا يكوّن صوابا: التمنى والعجز. وقد خرجت كثير من الأمثال العامية فى هذا المعنى كبائعة اللبن التى بعد بيعها وشرائها بثمنه ثروة حيوانية تغنيها، وبها تشترى الأرض، وتبنى المنزل لتقطن فيه. ثم فجأة تتعثر ويقع اللبن على الأرض وتتحطم الأمانى والأحلام. ومثل المثل الشعبى "فلسنجى بنى له بيت، طمعنجى سكن له فيه".